

على هامشه ذكرى المعري

«داعى الدعوة» مناظر المعري

للدكتور محمد كامل حسين

- ٢ -

أنجبه المؤيد إلى مصر حيث إمامه الفاطمى ، ومقر الدعوة التى كان يدين بها ، وفى طريقه كان يحدوه أمل باسم «شرق بما سيلقاه فى مصر من تقديم ونكرهم لما قام به من جهود فى سبيل الدعوة وعلو كعبه فى علوم المذهب ، فقد كان إليه المرجع فى عويص مسائله ، حتى أن داعى الدعوة الأكبر كان يرسل إليه يسأله ويستوضحه فى بعض المشاكل المذهبية ، لهذا كله بنى لنفسه فى الخيال قصوراً شائعة ، وعلا به خياله إلى الوصول أعلى المراتب ، ولكن هذا الأمل كانت تنفثه أحياناً سحابة

وإذا استثنينا البيت الثالث من هذا الكلام العجيب ، طلبنا من الله لشوق الرحمة ، كما طلبناها للأستاذ عنبر ... ولعل أصدق كلمة قيلت فى شعر راي هي تلك التى كتبها حافظ - رحمه الله - يحبى بها هذا الجزء الثانى الرائع من ديوان راي ، الذى يجمع شعر صباه أيضاً (١٩١٨ - ١٩٢٠) . قال حافظ :

«أدمنت النظر فى شعر راي ، فإذا به من ذلك النوع الحسن الذى يهزئك تمايل حسنه . تسمع البيت منه فيشيع الطرب فى نفسك قبل أن تعلم ماأنه ، وقبل أن يتطلع العقل إلى إلى فهم معانيه . ذلك هو شعر النفس ، وهو أرق مراتب الشعر وراي شاعر موفق الشيطان إذا تغزل أو وصف ، رقيق حواشي الألفاظ ، بعيد مرأى المعانى ، يقول الشعر لنفسه ، وفى نفسه ، فإذا جلس إليه ، وسنح له المعنى المعصرى ، تخير له اللفظ السرى وهو كثير الاعتماد على نفسه فى شعره ، فلا يتساق على كلام غيره ، وأثر ذلك يتبين فى غزله ووصفه ، فقد نما فيهما منحى عصرياً جديداً ، أكرمهما فيه عن عنجهية البداوة ، وركاكة أولئك الذين تصدوا لقرض الشعر ، فوضعوا أمامهم مشقاً من الشعر الغربى ، وترجوا معانيه ، ولكن إلى الألفه ،

مظلمة تطفئ على فكره فتهدم ما بناه خياله وتمهبط به إلى الخفيض ، وبالرغم من اعتناق المؤيد للمذهب الفاطمى ، وبالرغم من شدة احترامه لإمامه حتى درجة التقديس كان المؤيد يعلم أن السلطة الحقيقية فى مصر ليست بيد الإمام إنما كانت بيد أم الإمام ، أو بمعنى آخر كانت بيد التسترى وكيلها ، ولم يكن التسترى يأبه بشئون الدعوة العاطمية بقدر ما عنى بتركيز سلطانه وسطوته ، نخشى المؤيد أن لا يجد فى مصر ما كان يطمح إليه ، ركاد هذا التفكير ينفيه عن المضى فى رحلته إلى مصر ولكنه نظر حوله فلم يجد مكاناً يأوى إليه آمناً على حياته سوى مصر ففضي إليها حتى دخلها سنة ٤٣٧ هـ . وذهب إلى دار الخلافة حيث قابل الوزير الفلاحى الذى رحب بمقدمه وأكرمه وأمر بأن تجهز له دار وصفها المؤيد بقوله : « فأخذوني إلى ديرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال ، لا بالإكثار ولا من الإقلال » وسمع الناس بمقدمه ، فتوافدوا على داره للترحيب به ونصحوه بالاتصال بالتسترى . فذهب المؤيد إليه ،

فجاء أسلوبهم يرتضخ أعجمية ، وأسلوب راي يتدفق عريية . فديوانه سلوة العاشق ، ونزهة المتأمل . وحافظ رحمه الله صادق جداً فى معظم هذه النظرة السريعة المركزة فى شعر راي ، وإن ظلمه بقصر نبوغه على الغزل والوصف ، إذ عبقرية راي عبقرية متعددة النواحي ، إذا جاء الغزل وأشعار الغرام فى أولها ، لم يأت شعر الوصف فى المرتبة الثانية مباشرة ، بل سبقته ألوان زاهية زاهرة من شعر راي . . . فى مقدمتها ذلك الشعر الإنسانى الرفيع الذى سوف نتحدث عنه بعد أن نذكر لك هذا الكلام الذى جرى الكتاب على إثباته - - - - -

والذى تعرف أكثره ؛ فنذكر أن راي ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٨ ، أى فى السنة التى عرفنا أن أخانا الشاعر المحبوب « ناجى » ، وأن شاعرنا الجليل الموهوب « عزيز أباطة » قد ولد فيها . وأن والده كان طبيباً كبيراً معروفًا ، وأنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم زهد فى حرفة التدريس ففرغ لقرض الشعر مستعيناً براتبه الحكومى ومنصبه فى دار الكتب ، وما تدره عليه أغانيه ودراماته الشعبية من رخ حلال لا أظن أنه يذتفع بمظلمه ، وإنما يذتفع به البائسون والمحتاجون ... (يتبع)

مربى طيبة

في مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذي أُلح فيه أنوار
الطلعة الشريفة النبوية ، فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني
الروعة وغلبتني العبرة وتمثل في نفسي أنني بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)
مائل ، وبوجهي إلى وجهيهما مقابل ، واجتهدت عند وقوعي إلى
الأرض ساجداً أن يشفعه لسانى بشفاعته حسنة بنطقه ، فوجدته
بجمجمة النهاية معقولا وعن ضربة الخطابة معزولا ، ولما رفعت
رأسي وجمعت على " توبى للععود " وجدت بناأنا يشير إلى القيام ،
فقطب أمير المؤمنين خلد الله ملكه وجهه عليه زجراً على أنني
ما رفعت به رأساً ، ولا جمعت له قدراً ومكثت بحضرة ساعة
لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول ، وكما استرد الحاضرون
منى كلاماً ازدادت إعجاباً ولعقبته التي اقتحاما وهو خلد الله ملكه
يقول : « دعوه حتى يهدأ أو يستأنس » ، ثم قمت وأخذت يده
الكريمة فترسفتها وتركبتها على عيني وصدرى ودعيت وخرجت
وعين المؤيد بعد ذلك حاجباً على باب المجلس الذي يدخل
منه إلى أم الخليفة المستنصر الفاطمى ، حتى يكون على صلة دائماً
بإمامه ، وقنع المؤيد بهذا العمل المتواضع لا شئ إلا لأنه سيكون
على قرب من الإمام ، ولكن اليازورى خليفة التستري ، خشي
مغبة اتصال المؤيد بالمستنصر فمزله بعد ثلاثة أشهر واشتدت
نسكبة المؤيد بقتل الوزير الفلاحى وتولية الجرجانى الوزارة بعده ،
فقد كان هذا الوزير الجديد يخشى على مركزه وسلطته من
المؤيد ، فعادت إلى المؤيد سيرته الأولى من كثرة الأعداء حوله
وعن ذلك يقول المؤيد « وتبحرت في شأنى لا أفتح عيناً إلا على
عدو ، ولا أرى في جهة من الجهات إلا ضمير سوء » ؛ فصمم
المؤيد على السفر من مصر ، وبلغ اليازورى ذلك فاستدعاه وأقنعه
بالمعدل عن غزوه ، فظن المؤيد أن هذا التبليغ بإيمانه من المستنصر
فاضطرب إلى الخضوع ، ولا سيما وقد أصبح اليازورى الداعى
الأكبر ، وكان اليازورى ، كما وصفه المؤيد رجلاً عاطلاً من
المواهب التى تؤهل لمرتبة الدعوة ؛ فأراد المؤيد أن يتقرب إليه
وأن يصلح علاقته معه ، فاتفقا على أن يضع المؤيد المجالس
والمحاضرات التى يقرؤها داعى الدعوة عادة كل يوم خميس على أتباع
الذهب ، واجتهد المؤيد في تحسين وتجميل هذه المحاضرات حتى

وبالغ التستري في إكرامه ووهبه الأموال والخلع ، وأخذ يعمده
وعينه بل أراد أن يختص بالمؤيد دون غيره من وجوه المصريين ،
ولكن هذه الوعود كانت كسراب بقيمة يحسبه الظمآن ماء فلم
يف التستري بما وعد بل كاد للمؤيد ومنعه من مقابلة إمامه
المستنصر ، وزاد الطين بلة أن بعض المغرضين سمعوا بالفساد بين
المؤيد والتستري ، وخوفوا التستري من وجود المؤيد وقالوا له :
« كيف تطوع لك نفسك أن تأخذ هذا الرجل الأعجمى المقام
الذى أنت مخصوص به ، وما يؤمنك أنك إذا أدخلته أخرجك
وإذا قدمته أخرجك ، وهو أبسط منك لساناً وأقوى جناحاً ، وهو
يدل بمزة الإسلام والتخصيص بالدعوة والخدمة » فكان لهذا
الكلام وأمثاله أثر في نفس التستري الذى قلب للمؤيد ظهر
الجن وأوعز لبعض حاشيته للتجسس بالمؤيد حتى ضاق المؤيد
ذرعاً ، كان يلتفت حوله فلم يجد له ناصرأ ولا معيناً حتى الوزير
الفلاحى لم يستطع مساعدته ومؤازرته في هذا الوقت ، وهنا أجد
في سيرة المؤيد التى كتبها عن نفسه صورة دقيقة لحالة رجال
مصر في هذا الوقت ، ولا سيما هؤلاء الذين يتنافسون للوصول
إلى الحكم وإلى المؤامرات التى كان يدبرها بعضهم لبعض التى
أدت إلى اضطراب البلاد ، والغريب أن يصدر هذا الكلام من
رجل خدم الدعوة الفاطمية وأشاد بذكر الفاطميين وفضائلهم
وتهمكم بخصومهم ، ومع ذلك كله كان المؤيد في سيرته مؤرخاً
صادقاً صور حالة مصر كما هى دون تحيز لإمامه أو خوف ممن
تناولهم من معاصريه ، فقد كانوا جميعاً يخشون ازدياد نفوذ المؤيد
فعملوا جميعاً على الإيقاع به . لذلك فكر المؤيد في الخروج
من مصر بل استمد فعلاً للرحيل ، ولكن التستري خاف من المؤيد
إذا خرج من مصر فتمه من الرحيل ليكون تحت رقبته ورقابة
عيونه ، فاضطر المؤيد أن يكشف القناع عن هذا الرجل وأن يهجو
التستري في كل مناسبة تتاح له ، فبسط فيه لسانه في المجالس
والأندية دون خوف أو وجل إلى أن قتل التستري سنة ٤٣٩هـ
وصفا جو مصر للوزير الفلاحى الذى كان يعطف على المؤيد
بعض العطف . لذلك تراه يسمح للمؤيد بمقابلة إمامه المستنصر .
وتعت هذه المقابلة في آخر يوم من شعبان سنة ٤٣٩هـ ؛
وهنا أترك للمؤيد وصف مقابله الأولى لإمامه : « وكنت

يعلم اليازورى أن المؤيد قد أخلص الخدمة له ، واستمر الأمر على هذا المنوال مدة طويلة كان اليازورى يلقى المحاضرات التى كتبها المؤيد وكأنها من إنشائه حتى ولى اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢ ، فلم يشك الناس فى أن أمر الدعوة صار إلى المؤيد ، دون غيره ، ولكن خاب فأنهم إذ نذب لها أحد بنى النعمان واعتذر اليازورى للمؤيد بكلام خفف آلامه بعض الشيء ووعده وعداً حسناً ، وانتظر المؤيد الوفاء بهذا الوعد ، ولكنها لحقت بالوعود الأخرى ، فاشتد حنق المؤيد ، وأرسل إلى الوزير يهجهوه ، فتوعدده الوزير وهدده ، والمؤيد كما دته لم يأبه بوعيد ولم يخش من تهديد ، فاستمر فى حملته ضد الوزير واقطع عن لقائه سبعة أشهر إلى أن كانت ثورة بنى قرة وانتصار الجيش فى قمع هذه الثورة سنة ٤٤٣ وسارت الوفود آهنة الوزير ، فألح أصدقاء المؤيد عليه أن يذهب معهم للوزير ، ففعل مرضاة أصدقائه ، وسر الوزير لقدمه وعينه بعد ذلك رئيساً لديوان الإنشاء وضاعف فى رزقه فتحسن حاله ومع ذلك كانت أحواله مع اليازورى بين الرضى والنصب ، وكل ذلك مرجه إلى طمع المؤيد وطعمه فى الوصول إلى درجة داعى الدعاة

ظل المؤيد صاحب دار الإنشاء فى مصر إلى أن سمع بدخول طغرل بك التركمانى مدينة الرى سنة ٤٤٦ ، وبحكم عمله بدار الإنشاء علم بأن البيزنطيين اتفقوا مع السلجوقيين لغزو أملاك الفاطميين فى الشام وأعلى الجزيرة ، فعمد المؤيد إلى المكر والخدمة ، فكانت الكندرى وزير طغرل بك وكناب غيره ممن تورم أنهم على اتصال بالسلجوقيين ، واجتهد فى أن يستميلهم جميعاً للذهب الفاطمى وإلى مساعدة الفاطميين ضد البيزنطيين والعباسيين ، وكان يرى بذلك إلى هدفين ، إما أن ينجح مسعاه ويدخل القوم فى الدعوة الفاطمية أو أن تصل إلى سامع الخليفة العباسى أمر هذه المكاتبات ، فلا يطمئن إلى طغرل بك وصحبه وبجاريه ليعمد عن أملاك الدولة العباسية ، ولكن جيوش طغرل بك زحفت إلى العراق وخطب له على مقابر بغداد سنة ٤٤٧ ، وسمع المؤيد بهروب البساسيرى من بغداد خوفاً من التركمانية ؛ فانهز المؤيد هذه الفرصة وكاتب البساسيرى ووعده بالأموال والسلاح ليحارب السلجوقيين باسم الفاطميين ، ومن الطبيعى أن يرحب البساسيرى بالعمل باسم الخليفة الفاطمى ، وأرسل إلى المؤيد بذلك ، فذهب المؤيد إلى الوزير اليازورى

وأطلعه على هذه المكاتبات فوافقت هوى الوزير ، واستعد الفاطميون فى تجهيز الأموال والخلق والسلاح التى وعدوا بها البساسيرى ، ولكن اليازورى لم ينس للمؤيد تصرفه هذا بدون استشارته فى أول الأمر ، وانهز هذه الفرصة لافتلاع المؤيد من مصر لازدياد نفوذ المؤيد فى البلاد ؛ فقد اكتسب المؤيد فى هذه الفترة الطويلة احترام وحب عدد كبير من المصريين وخاصة بعض حاشية الإمام المستنصر . لذلك ترى اليازورى يعمد إلى المؤيد أن يكون على رأس الركب المسافر بالأموال والخلق ؛ فاعتذر المؤيد وأدرك من توه ما كان يحول بخاطر اليازورى ، ولذلك كان يقابل مكر الوزير بمكر أشد منه وأقوى ، حتى كاد اليوم الذى حددوا فيه السفر تمسك الوزير بأذيال المؤيد ، وأخذ يستمطفه ويلج عليه بأن يتولى توصيل الأموال إلى البساسيرى ، والمؤيد يعمد فى الرفض كلما أمعن الوزير فى الإلحاح ، حتى اضطر الوزير أن يقول للمؤيد : « افتقرنا إليك وافتقرت الدولة والإسلام والمسلمون ، وديانتك تقتضى أن تصرخ صريحهم وتجير مستجيرهم » . فسخر المؤيد من كلامه هذا ، وأجابه متهمكاً : « سبجاني سبجاني إن كنت بهذه المثابة ومحال هذه المخاطبة ! » ولكن الوزير ازداد إلحاحاً واشتد دفع المؤيد ، وأخيراً قبل المؤيد أن يتولى هذا الأمر بشرط أن يخرج توقيع الإمام المستنصر بأن لا يوجه إليه لوم لو فشل فى مهمته ؛ فأجيب إلى ذلك وصدر التوقيع وبه الإنعام على المؤيد بخلق الوزارة ، ودعى المؤيد للنسبا ولسكرته رفض ، واعتذر عن ذلك مفضلاً أن يظل فى رى أهل العلم

وأخذ الركب فى السير بين جلبة عظيمة ، والناس فى عجب من أمر المؤيد الذى قبل السفر فى هذه المهمة الشاقة ؛ فقد كان مقدماً على خطر جسيم وعمل لا يستهان به ، وهو قلب نظام الحكم فى العراق وإسقاط الدولة العباسية . والغريب حقاً أن يطلب المؤيد ألا يصطحب معه جنداً واكتفى بما معه من خزائن المال والسلاح تجاوز الركب حدود مصر فى طريقه إلى الرحبة ، وكان اليازورى قد نصح المؤيد بالانتماء عن ابن صالح المرداسى صاحب حلب ، لأنه نقض عهد الفاطميين واستقل ببلاده ، فصار عدواً للفاطميين بعد أن كان تابعاً لهم ، ونصحه كذلك أن يصطنع عدداً من الكليبيين ليحاربوا مع البساسيرى ، فكانت هذه النصائح موضع تفكير المؤيد طول سفره ، حتى بلغ دمشق